اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة السادسة)

عنوان المحاضرة : تتمة التجديد في الاغراض القديمة .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة ٦

التجديد فى الموضوعات القديمة

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديح، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية الدين، وخاصة إذا كان يمدح خليفة، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها، وسجلوا أيضا مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة. وبذلك كانت المدحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمة خلقية ودينية لتربية الشباب، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربية. وكل ذلك اضطرم اضطراما فى المدحة عند شعراء العصر العباسى الأول، مع محاولاتهم الجادة فى التطور بمعانى المديح عمقا وسعة وتنوعا، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم فى هذه الإضافة تزداد خصبا فى هذا العصر، وهم فى ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة، فإذا مدحوا خليفة أو واليا أو قائدا تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة، وكذلك الفضائل الإسلامية، وتمثلوا أيضا العدل الذى يعصم الحاكم من **الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد.**

ويتردد ذلك دائما على ألسنة الشعراء من مثل قول البحترى فى المتوكل، وكان اسمه جعفرا (١):

خلق الله جعفرا قيّم الدّنـ ...يا سدادا وقيّم الدين رشدا

أظهر العدل فاستنارت به الأر ...ض وعمّ البلاد غورا ونجدا

وكان هناك من يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليضفون عليهم صفات قدسية، وهى صفات خلعها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بنى أمية، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين، من مثل قول ابن الجهم فى المتوكل (٢):

إمام هدى جلّى عن الدين بعد ما ...تعادت على أشياعه شيع الكفر

وقوله (٣):

له المنّة العظمى على كل مسلم ...وطاعته فرض من الله منزل

ويكثر فى عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا، وكلما شاد قصرا نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره. وليس هناك حادثة جلّى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبى دؤاد، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بختيشوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك فى أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أمجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا فى حومات الوغى شمالا وشرقا، وهى ليست تاريخا يسرد كما تصنع كتب التاريخ، وإنما هى أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل فى حروب الروم والترك والأرمن، وماتنى الجيوش العربية تخوض إليهم بحورا من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تذر: وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقا، وفيه وفى **انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحترى** (٣):

هو الملك المرجوّ للدين والعلا ...فلله تقواه وللمجد سائره

له البأس يخشى والسماحة ترتجى ...فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشره (٤)

كسرتهم كسر الزّجاجة حدّة ...ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره

حسام وعزم كالحسام وجحفل ...شداد قواه محصدات مرائره

باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها

عذيرى من الأيام رنّقن مشربى ...ولقّيننى نحسا من الطير أشأما (٢)

وأكسبننى سخط امرئ بتّ موهنا ...أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما (٣)

وقد كان سهلا واضحا فتوعّرت ...رباه وطلقا ضاحكا فتجهّما (٤)

أعيذك أن أخشاك من غير حادث ...تبيّن أو جرم إليك تقدّما

الغزل المادى الماجن: كانت تحفّه دائما وتتخلله معانى الغزل العربى العفيف الذى شاع فى العصر الأموى، وكانت هذه المعانى تخفف من ماديته كما كانت تشعل فيه جذوة الحب الظامئ وآلامه الثقال، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامع الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها.

وأيضا لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حيّا لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفا، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدران الحسّ وأعراضه، وعاشوا فى حبهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهانى صاحب كتاب «الزهرة» فى الحب وأشعاره. وملاحظة أخيرة هى أن الضربين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت تكلّف؟ ؟ ؟ الشعراء الخصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيرا من خطرات الحب ودقائقه البديعة، وابن الرومى لا يبارى فى نفوذه إلى هذه الدقائق، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين (١).

أعانقها والنفس بعد مشوقة ...إليها، وهل بعد العناق تدان

وألثم فاها كى تزول حرارتى ...فيشتد ما ألقى من الهيمان (٢)

كأن فؤادى ليس يشفى غليله ...سوى أن يرى الروحين يمتزجان

نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث فى الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعانى أو من حيث التصاوير، أخذت الموضوعات الجديدة التى عرضنا لها فى كتاب العصر العباسى الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نموّا واسعا حتى لتصبح موضوعات جديدة جدة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهانى الذى تحول إليه شعر المديح فى بعض جوانبه، وخاصة التهانى بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفا، وكان أول من افتتح التهانى أحمد بن يوسف للمأمون (١)، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع. فأكثروا من التهنئة بالمواليد، وأيضا فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب.

وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سلال رطب من ضيعته (٢):

أذن الأمير بفضله ...وبجوده وبنيله

لوليّه فى برّه ...بجناه سكّر نخله

فبعثت منه بسلّة ...تحكى حلاوة عدله

وكثيرا ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين فى أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة، وقد يصفون ما يهدونه تظرفا كقول ابن الرومى فى قدح أهداه إلى على بن يحيى المنجم (٣):

وبديع من البدائع يسبى ...كلّ عقل ويطّبى كل طرف

كفم الحبّ فى الملاحة بل أشـ ...هى وإن كان لا يناجى بحرف

وسط القدر لم يكبّر لجرع ...متوال ولم يصغّر لرشف

كما يذكر رفاهة العيش التى كانت بها، ولين الحياة ونعيمها وتملأ نفسه أطلال الإيوان وما نقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سجّل بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسى «الجرماز (١)»:

فكأن الجرماز من عدم الإد ...س وإخلاقه بنيّة رمس (٢)

لو تراه علمت أنّ الليالى ...جعلت فيه مأتما بعد عرس

وإذا ما رأيت صورة أنطا ...كيّة ارتعت بين روم وفرس

وصف البرق:

من رأى برقا يضئ التماحا ...ثقب الليل سناه فلاحا (٢)

وكأن البرق مصحف قار ...فانطباقا مرة وانفتاحا

فى ركام ضاق بالماء ذرعا ...حيثما مالت به الريح ساحا (٣)

لم يدع أرضا من المحل إلا ...جاد أو بعد عليها جناحا (٤)

وسقى أطلال هند فأضحت ...يمرح القطر عليها مراحا

فالليل أضاءته مصابيح البروق، وكأنها حين تشتعل وتنطفئ مصاحف بأيدى قرّائها تنفتح وتنطبق، وسيول المطر تتدافع من كل صوب نافئة لعابها من جدب إلى جدب ومن حوض إلى حوض. والسحب تمد جناحها وتبسط ركامها والأرض تمرح فى نباتاتها ورياحينها وبطاحها الخضراء.

وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التى تأخذ بالألباب؛ ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول **وصف الورد والربيع :**

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه ...حسن الرياض وصوت الطائر الغرد

بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ...وراحت الرّاح فى أثوابها الجدد

ما عاينت قضب الريحان طلعته ...إلا تبيّن فيها ذلّة الحسد

يصور المعركة بين الأسدين، إلى أن خرّ السبع يتضرج فى دمائه، يقول (١):

فلم أر ضرغا مين أصدق منكما ...عراكا إذا الهيابة النّكس كّذبا (٢)

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ...وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

فلم يغنه أن كرّ نحوك مقبلا ...ولم ينجه أن حاد عنك منكّبا

حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ...ولا يدك ارتدّت ولا حدّه نبا

ولا يكتفى البحترى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى، فقد تصادف أن لقيه ذئب فى بعض أسفاره، فنازله وقضى عليه، وأفاض فى تصوير هذا الذئب مستمدّا من ملكته البارعة فى تصوير الحسيات تصويرا يجسد ما يصفه تجسيدا قويّا؛ على شاكلة قوله **وصف الذئب:**

وأطلس ملء العين يحمل زوره ...وأضلاعه، من جانبيه شوى نهد (٤)

له ذنب مثل الرّشاء يجرّه ...ومتن كمتن القوس أعوج منأدّ (٥)

طواه الطّوى حتى استمرّ مريره ...فما فيه إلا العظم والروح والجلد

شكوى الزمان:

أناف الذّنابى على الأرؤس ...فغمّض جفونك أو نكّس (٢)

وضائل سوادك واقبض يديك ...وفى قعر بيتك فاستجلس

وعند مليكك فابغ العلوّ ...وبالوحدة اليوم فاستأنس

لوحة الحسد:

يا من يناجى ضغنه فى نفسه ...ويدبّ تحتى بالأفاعى اللّدّغ

ويبيت تنهض رفرة فى صدره ...حسدا وإن دميت جراحى يولغ (٢)

ما زال يبغى لى بكل قرارة ...حمة الأذى ويشير إن لم يلدغ (٣)

بيان الشقاء والبؤس

إنى رضيت من الرحيق ...بشراب تمر كالعقيق

ورضيت من أكل السّميـ ...ذ بأكل مسودّ الدقيق

ورضيت من سعة الصحـ ...ون بمنزل ضنك وضيق

الشعر التعليمى:

القصيدة المنسوبة إلى أبان والتى قال الرواة عنها إنها كانت فى بدء الخلق، أما الجزء الثانى وهو الخاص بتاريخ الخلفاء، فيعد سابقا فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا فى نظم هذا التاريخ، ونراه حريصّا فى مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول، وقد بدأ بقصة خلق آدم:

يا سائلى عن ابتداء الخلق ...مسألة القاصد قصد الحقّ

أخبرنى قوم من الثّقات ...أولو علوم وأولو هيئات

تفرّغوا فى طلب الآثار ...وعرفوا موارد الأخبار

ودرسوا التوراة والإنجيلا ...وأحكموا التأويل والتنزيلا

أن الذى يفعل ما يشاء ...ومن له القدرة والبقاء

أنشأ خلق آدم إنشاء ...وقدّ منه زوجه حوّاء

المصادر والمراجع :

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)

- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .